الإخاء (١)

ايها السادة والسيدات

يعز عليَّ ان يصمت الصغار لأتكلم انا . لكني اسألكم ان لا تصغوا الى صوتي لانهُ ضعيف لا تهتز لهُ موجات الهواء الاَّ قليلاً . بل اصغوا الى ذلك الصوت الهامس لكل نفس في وحدتها حتى اذا اجتمع الافراد جمهوراً ارتفع ذلك الصوت واختلطت معانيهِ بمعاني اصوات تحيط بهِ فتصبح الاصوات الكثيرة صوتاً واحداً شاملاً يهزُّ القوم هزًّا مهما اختلفوا جنساً وعقيدة ومصلحةً وميولاً . يحيي علماء النفس هذا التأثير الواحد الذي يخضع لهُ الجمهور « نفس الجماعات » . اما ساداتنا الاطباء الذين وجدوا العدوى في كل مكان فقد دعوهُ « عدوى عصبية » . الكلمة مخيفة قليلاً غير انها عدوى مستحبة تتحد القلوب تحت تأثيرها فيطرب الجميع لطرب واحد ويتوجعون لحزن واحد فيسعون لمصلحة شريفة واحدة . في هذه العدوى شاهدٌ على ان بين القريب والغريب صلة قرابة شديدة . وما تلك الصلة إلاَّ مظهر من مظاهر الاخاء الكبير

ان كلمة الاخاء التي ينادي بها دعاة الانسانية في عصرنا ليست ابنة اليوم فحسب بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت الى الوجود منذ شعر الانسان بان بينهُ وبين الآخرين اشتراكاً في فكرة او عاطفة او منفعة وبانهم يشبهونهُ رغباتٍ واحتياجاتٍ وميولاً . يجب ان يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان . يجب ان يحتاج الى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيرهُ اليهِ يجب ان يرى حقوقهُ مهضومةً يُزدرى بها ليفهم ان حقوق الغير مقدسة يجب احترامها . يجب ان يرى نفسهُ وحيداً ملتاعاً دامي الجراح ليعرف نفسهُ اولاً ثم يعرف غيرهُ فيخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الاخاء بارتقاء الانسان في جمعيات سرية وطنية في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استعملت كلمة الاخاء بين الانسان والانسان قروناً طوالاً حتى جاءت الثورة الفرنساوية تهدم اسوار الصهيونية بهدم جدران الباستيل وتعلن حقوق الانسان مستخلصةً من بين الاخربة والدماء والجماجم كلمات ثلاثاً هنَّ شعار العالم الراقي : حرية مساواة إخاء

(١) خطبة القتها الانسة ماري زياده في احتفال جمعية القديس جاورجيوس في ٣ مارس ١٩١٨ (انظر اخبار المطبعة في هذا الجزء)

حرية مساواة . كلمتان جميلتان يخفق لهما قلب كل محب للانسانية لكن هل كان تحقيقهما في استطاعة البشر ؟ ما اضيق معنى الحرية اذا ذكرنا ان مجموعة الكائنات تكوّن وحدة العالم وان كلاً منها يجب ان يصل الى درجة معينة من النمو مشتركاً مع بقية الكائنات في اكمال النظام الشامل وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الانسان وحدهُ متصرفاً في افعالهِ بشرط ان يخضع للقوانين المحيطة بهِ والنافذة فيهِ هو حرٌّ بشرط ان تنتهي حريتهُ حيث تبتدئ حرية جارهِ وبشرط ان يعلم انهُ حيثما وجدَ النظامُ وافكارهُ وجد نظاماً معيناً وان حريتهُ كل حريتهِ قائمة في اختيار السير مع ذلك النظام او ضدهُ واستعمالهُ للخير او الشر للربح او الخسران . فما اكثرها شروطاً تقيد هذه الحرية التي تتدكُ لاجلها العروش وتتطاحن الامم للحصول عليها

اما المساواة فحلمٌ جميل ليس غير . لان الطبيعة في نشوئها التدريجي لا تعرف الاّ الاختلاف والتفاوت . اين المساواة بين النشيط من البشر والكسول بين صحيح البنية والعليل وراثةً بين الذكي وغير الذكي بين الصالح والشرير ؟ كلاّ ليست المساواة بالامر الميسور بل هي معاكسة لنظام حيوي اذا غلب كان غالباً قاهراً

كلمة واحدة تجمع بين حروفها الحرية والمساواة وجميع المعاني السامية والعواطف الشريفة . كلمة واحدة تدل على ان البشر اذا اختلفوا في بشريتهم اختلافاً بيناً فهم واحدٌ في الجوهر واحدٌ في البداية والنهاية . كلمةٌ واحدة هي بلسم القروح الاجتماعية ودواء العلل الانسانية وتلك الكلمة هي الاخاء . لو ادرك البشر اخوّتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صُرعت فيها زهرة الشبيبة وما زالت الدماء جاريةً في القارات الاربع وما يظللها من سماء ويخللها من ماء . لو ادرك البشر اخوّتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لو ادرك البشر اخوّتهم لما رأينا المطامع تدفع الامم القوية الى استعباد الامم الضعيفة . لو ادرك البشر اخوّتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌّ في حق اخيهِ وهي من اركان احاديث صالوناتنا الجميلة . ولكن لننزلنّ قليلاً الى ما هو تحت السياسة والتاريخ والصالونات . لننزلنّ الى مهبط الشعب حيث الشقاء مخيم واليأس مستديم . ما اوجع منظر اليد الممتدة للاستعطاء انهُ يدل على احتياج الجسم الى القوت ويدل خصوصاً على جوع النفس وفقدانها لتلك الافكار التي تملي المرء في عين نفسهِ ولتلك العواطف التي تجعلهُ شاعراً بانهُ جزءٌ مهمٌ من هذا العالم البديع . عواطف نبيلة وافكارٌ عظيمة لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع وتتلاشى مع استمرار الفاقة

والذل والانكسار . الى اين تذهبون ايها السائرون في مركباتكم الفاخرة ؟ الى اين تسيرون ايها الضاحكون ؟ تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون وتذكرون بسمات الربيع واخلاص الاصدقاء . اما تلك النفوس الشقية فلا تدري من ذلك شيئاً . ما الانسان في شرعها الا عدو لدود وما الحياة الا سرير الغموم ومستودع البلايا . انتم السعداء تتألمون لعذوبة الحب وطهر الولاء وهم البؤساء يطوون على الحقد احشاء صدورهم ويكظمون حقداً تذكو جمرته مع الايام . وفي هذه الطبقة الجائعة الذليلة النائمة الانفعال تكونت بذور ثورات هائلة تمت فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالاً

غير ان فئة من هذه الطبقة لا تعرف تمرداً ولا تكظم حقداً . وهي اوجع فئة لانها تتألم صامتة ولا ترجو راحة وسلاماً الا من الموت

واذا ظننتم اني اتكلم كشاعر يهيم في اودية الخيال فها كم حقائق ملموسة : منذ اشهر قليلة انتحر شاب في الثامنة والعشرين من سنيه . كان له ام جائعة وكانت ابواب الرزق مقفلة في وجهه فالقى بنفسه في النيل تخلصاً من الحياة . بعد ذلك ببرهة وجيزة مات شيخ في الثانين من عمره كان يستعطي على مقربة من جسر بولاق وقد اسفر التحقيق بعد موته عن انه لم يتناول قوتاً منذ خمسة ايام . في اواخر الصيف الماضي وجد بوليس الاسكندرية اربعة ايتام بلا مأوى . سار بهم الى المعاهد الخيرية لكن معاهد البر حددت عدد من تقبلهم في هذه الاعوام مراعاة للظروف الاقتصادية . فعاد البوليس بالاطفال الى القسم حيث جلسوا يبكون ولما سئلوا عما يحزنهم اجابوا انهم لم يأكلوا منذ مات امهم اي منذ ثلاثة ايام

اني اتذرع بصوت هؤلاء البائسين ودموعهم لاصرخ ان مثل هذه الفواجع يجب ان لا يكون . ولا اقول ان الاجتماع باسره مسؤل امام ضميره عن اهماله وقسوته . وانه ما دام في وسطه شهيد واحد من هؤلاء الشهداء فهو قاتل جان . فان الاجتماع جسم واحد سواء شاء الافراد ام لم يشاؤوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم اسرة كبيرة واحدة . تلك سلسلة قيدتنا بها يد الله فمن حاول كسر حلقة من تلك السلسلة جرح نفسه وكان لغيره مؤذياً . ليس هناك من عار ان يكون المرء ذليلاً في اسرته او ضعيفاً بين اخوانه بل هناك امتياز يجعل الضعيف او الحقير او الجائع ان يكون محبوباً اكثر من غيره لانه يحرك العطف والحنان في القلوب المتحجرة وينبه السعيد من اخوانه الى واجبه نحو المحروم من نعم الحياة .

من المفكرين من يقول بامكان حذف الفقر وملاشاة الالم . لكن ذلك مستحيل

وسيظل الفقر موجوداً ما دام احد الناس اوسع ثروة من غيره فكان الآخرون فقراء بالنسبة اليه . ثم ان الفقر النسبي ممرٌّ لازم الى الغنى وهو منبه للذكاء مهيج للرغائب تحتدم فيه نار قوى عديدة طالما اطفأت جذوتها عيشة الرغد والهناء . اما الألم فناموس قهار وهو المهذب الاكبر الذي يعلمنا دروس الحياة كلها فكلها . هو النار المطهرة النفس من كل غش وفساد حتى تتركها جوهرة لامعة . هو دافع بالمرء الى داخل نفسه حيث يجد قوته واقتداره ويتعلم الرحمة والاشفاق . لان الذي لم يرَ دموعه عاطلة على ارض صمّاء ولم يشعر بان دماء قلبه تسيل نقطة بعد اخرى ولم يبصر حجاب اليأس مسدولاً بينه وبين البشر . ذاك الذي لم يتوجع باحتياجه الى التعزية . كيف يمكنه ان يشفق ويرحم . كيف يدخل الى قلوب الغير ويلمس موضع اللوعة منها ؟ نعم الفقر والالم ضرور بان للحياة ولكني اقول بامكان استئصال الفاقة . فالفاقة مرض اجتماعي وكما تلاشى البرص من جسم الانسان يجب ان تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع . ولا يتم ذلك الاّ اذا ترابطت منا الافئدة القادرة العاملة . لا يتم ذلك حتى يذكر الاقوياء انهم اخوة للضعفاء فيحنون على نفوس محزونة تضج بالامى ضجيجاً ويرفعونها الى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير ناموس تنازع البقاء السائد في عالم الحيوان ناموس التعاون على حب الحياة السائد في عالم الانسان

ما هو النهر ايها السادة والسيدات . وهل يكون نهراً اذا انبثق من مصدر وانصب في البحر دفعةً واحدةً ؟ انما يتفجر ينبوع النهر في اعالي الجبال فيهرول مقهقهاً على الصخور حتى اذا ما حشر بين الشواجن الخضراء ملأ الوادي الحانّاً وانغاماً . يجري في الصحارى والقفار فتنقلب الصحارى والقفار مروجاً خصيبة وجنات زاهرة . يسير في البادية والحضر على السواء فيروي سكان المدينة واهل القرية بلا تفريق بين الشريف والحقير . يرضع الاشجار بحنانه في صدر الارض الملتهب ويغذي الاثمار والنبات ناظراً لآلئه في ثغور الورود . وكلما وزع من مياهه زادت مياهه اتساعاً وتدفقاً فيتابع السير بعقيقه الفخم واسع العظمة رحب الجلال حتى اذا ما جاب النفع على الكائنات وملأ الديار خيراً وثروة وجمالاً رأى البحر منبسطاً لاحضانه فيشهق الشهيق الاخير وينصبّ في صدر البحر مهللاً مكبّراً . كذلك عاطفة الاخوة لا تكون اخوة حقيقية الاّ اذا خرجت من حيز الشعور الى حيز العمل . تتفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع وتجري نهراً كريماً بين طبقات المجتمع فتلتقي بين المتناظرين سلاماً وبين المتدابرين تساهلاً وتنقش محامد الناس

على النحاس . اما العيوب فتحطها على صفحة الماء . تساعد المحتاج ما استطاعت بلا تفريق بين المحمدي واليسوي والموسوي والمحمدي . ترفع المسكين من بؤس الفاقة وتنشر على الجاهل اشعة العلم والعرفان وتفتح ابواب الرجاء لعيون اغلقها احزان اليأس . فكم من درةٍ في أعماق البحر لم تسرّ بها النواظر لان يد الغوّاص لم تصل اليها ! وكم من زهرةٍ نوّرت في القفر فتبدد عطرها جزافاً في الهواء ! إنّ الاخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ويرفع لها جدراناً لقيها ريح السموم الفتاك . هو العين المحبة التي ينفذ نظرها الى اعماق النفس فترى اوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير الجميع بثقة وسرور لانهُ القلب الرحيم الخافق مع قلب الانسانية الواجف

الاخاء ! لو كان لي الف لسان لما عجبت من ترديد هذه الكلمة التي تغنت بها الضمائر الحرة وانفتحت لها قلوب المخلصين . هي ابدع كلمةٍ وجدت في معاجم اللغات واعذب لفظةٍ تحركت بها شفاه البشر . الاخاء يضع حدّاً لفظائع الاضطهاد ويكسر سيف الظلم والاستبداد . هو اللين والرفق والسماح كما انهُ الحلم والحكمة والسلام . لو كان لي الف لسان لظللت انادي بهاء الاخاء » حتى تجبر القلوب الكسيرة حتى تجف الدموع في العيون الباكية حتى يصير الذليل عزيزاً حتى يختلط رنين الاجراس بنغمات المؤذنين فتصعد نحو الآفاق اصوات الحب الاخوي الدائم

احبيك يا معهداً احسنت عائدةً على البائسين فضممتهم اليك ليشعر اليتيم بان لهُ والدين اذا قضى الوالدان . وعنيت بامر صغارٍ وصغيرات هانوا على مصائب الدهر فتفتحت امامهم سبل الرجاء وعلّمتهم نشيد العصر وهو نشيد الحياة القائل :

كن ابن من شئت واكتسب ادباً يغنيك محمودهُ عن النسب
ان الفتى من يقول ها انذا ليس الفتى من يقول كان ابي

احبيكم ايها المحسنون اغنياء كنتم تعطون البائس من ثروتكم والضعيف من قوتكم ام علماء تفتحون عيني الجاهل على آفاق الضياء وتذكّرون الانسان ان بنا جسدهُ مقيد بقيود المادة فان روحهُ لتنظر دائرة النور الاطهر . واذا صدق اوغست كونت بقوله ان الاخاء يجب ان يكون ديناً اجتماعياً عامّاً وان الانسانية يجب ان تكرس اعياداً لاعاظم رجالها وكبار محسنيها فانتم اولئك الاعاظم والمحسنون وبدلاً من ان تتلاشى تحيتي على اجنحة الهواء وددت ان اخطها خالدةً باحرف النور على جبهة السماء !

ايها السادة والسيدات

لقد شاد قدماء المصريين اهراماً تناطح الجوزاء عظمتها وتحير العقول اشكالها الهندسية ورموزها السرية ونحن ابناء هذا العصر نريد رفع هرم جديد يكون اعم منفعة واوسع فائدة . ذاك منارة الصحراء ومدفن الفراعنة وهذا منارة البؤساء ومدفن الذل والشقاء . ذاك يتركب من احجار ضخمة وصخور منحوتة . وهذا يتألف من مدارس للبائس واليتيم وملاجئ للعجزة وجمعيات بر تساعد الارامل والمحتاجين وتمهد سبيل العمل للعاملين . ذاك يلحم فيه بين الحجر والحجر طين الارض وهذا يربط معاهده تبادل الرغائب الشريفة ويسير اعماله اهتمام الاخوة العالية . ذاك رُفع بعرق البؤساء ودم العبيد وهذا يرفع بعطايا المحسنين وكرم ذوي الاريحية . ذاك لم تفهم اسراره الا الاقلية النادرة وهذا تتهذب في مدارسه الاكثرية الباسلة فتسمو في سلم البشرية ويرتقي بارتقائها الاجتماع باسره

فيا رسل جمعيات البر في هذا الاجتماع الجليل ساعة تعودون الى اخوانكم واخواتنا من مسلمين واسرائيليين ومسيحيين قولوا لهم انكم رأيتم هيكلاً جديداً من هيا كل الاحسان ومعهداً ينضم الى معاهدكم السامية . قولوا ان الرجال يعملون فيه بسخاء وغيرة وهمة تتزايد مع الايام وان السيدات يسابقنهم بما عندهن من عطف وذكاء وحنان لان اشرف موقف يظهر فيه حب المرأة هو موقف البر والاحسان . واذا امتدت لكم يد من هذا المعهد الحديث فلا تسألوا هل هي مصرية او سورية او اجنبية بل صافحوها تعلموا انها يد كم بعينها لانها يد الاخاء الانساني العظيم !

ماري زياده (مح)

الحبوب واسعارها

كثر اهتمام الناس في هذه الايام باسعار الحبوب بعد ان غلت غلواً فاحشاً . ونريد بالحبوب هنا ما يطحن دقيقاً اي القمح والذرة الشامية والبلدية . فما يأكله سكان القطر المصري منها الآن انما هو مما يجبى من اطيانهم وشيء قليل مما يرد من السودان . اما ما يرد من الخارج الآن فوارد من انكلترا واستراليا للجيش البريطاني وقد بلغ ثمنه في العام الماضي ٦٩٣ ١٠٧ جنيهاً وفي الذي قبله ٤٧٦ ٥٧١ جنيهاً وفي الذي قبله ٥٥٤ ٥٩٥ . واما قبل الحرب وقبل مجيء الجيش البريطاني الى هذا القطر فكان الوارد من القمح والذرة والدقيق يرد لمقطوعية سكان القطر وكان هذا الوارد كثيراً يبلغ ثمنه في السنة اكثر من